"من طلب عظيماً خاطر بعظيم"

- معاوية بن أبي سفيان "رضي الله عنه" -

الشيخ العلامة:

أبو الأعلى المودودي (١٣٢١-١٣٩٩هـ):

"العالِم... بمعنى الكلمة"

العالم الفذ، المفكر والداعية الإسلامي الكبير، أحد أعلام الدعاة في العصر الحديث، وأمير الجماعة الإسلامية في الهند وباكستان، سيرته من أعذب السير، خليط بين الإيمان والعلم والصبر والطموح، وإنها لمنقصة عظيمة لمن فاته قراءتها.

مولده وحياته المبكرة:

ولد أبو الأعلى في يوم الجمعة ١٢ رجب عام ١٣٢١م -الموافق ٢٥ من سبتمبر ١٩٠٣م- في مدينة "أورانك آباد" من ولاية (حيدر آباد) في الركن الإسلامي في الهند، وكانت خاضعة للاستعمار الإنكليزي، من عائلة هاشمية حسينية. كان أبوه محامياً ناجحاً، ترك مهنته ثم عاد إليها معاهداً نفسه ألاّ يدافع إلاّ عن المظلومين وأصحاب الحقوق.

تعهده والده بالتربية والتعليم، فتعلم الشيخ في صباه اللغتين العربية والفارسية، والقرآن الكريم، والحديث الشريف والفقه، وحفظ موطأ الإمام مالك غيباً.

دخل المدرسة، والتحق بتلاميذ الصف الثامن الإعدادي وهو في الحادية عشرة، ونال شهادة الثانوية العامة وهو في الرابعة عشرة، وهذا يدل على عبقرية

ناشئة، ومما يدل على ذلك أيضاً أنه كان -حينذاك- يكتب مقالات في الصحف ويلقي الخطب!

إلا أن الحال لم تستمر على ما هي عليه، فقد عانت أسرته من فقر وشظف العيش، وكان أبو الأعلى يمشي كل يوم عشرين ميلاً في الذهاب إلى المدرسة في البلدة المجاورة، صباحاً وفي العودة مساء، إلاّ أنه لم يستمر في الذهاب، إذا توفي والده بعد ذلك تاركاً أسرةً فقيرة، مما اضطره إلى ترك المدرسة والعمل لتحصيل الرزق.

وفي هذه الأثناء -وهو في الرابعة عشرة من عمره- كان يكتب مقالات نارية في الصحف مدافعاً عن الخلافة الإسلامية التي تحتضر. وفي السابعة عشرة من عمره أصبح رئيس تحرير مجلة (المسلم) التي تصدرها جمعية العلماء.

وفي يوم من الأيام ناشد الرمز الإسلامي محمد علي جناح المسلمين أن يتصدى أحدهم لاتهامات غاندي للجهاد، حيث زعم غاندي أن الإسلام قد انتشر بالسيف، فأخذ المودودي هذه المناشدة على محمل الجد، وألف كتابه "الجهاد في الإسلام "، وهو الكتاب الذي لقي صدى كبيرا عند المسلمين في ذلك الوقت، وشكل نقطة تحول عند المودودي، حيث وجد أثناء مراجعته للقرآن الكريم أن كثيرا من العلوم التي تعلمها لا قيمة لها إذا لم يقرأ القرآن ويفهمه،.

المؤلف والمفكر:

لم يستسلم المودودي لعقبة تركه للمدرسة، فأخذ يعلم نفسه بنفسه، فدرس العلوم العربية والشرعية،والحديث، والتفسير، والفقه، والأدب العربي، والبلاغة العربية، والمنطق، ثم تعلم اللغة الإنجليزية في أربعة أشهر، ثم درس الأدب الإنجليزي، والتاريخ، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية الغربية، وانطلق يقارن بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، فرأى الفروق الشاسعة بين الثقافتين.

وفي أثناء ذلك تولى إدارة مجلة "ترجمان القرآن" وحده عام ١٩٣٣ م، وكانت انعطافة كبيرة في حياته، أخذت منه الكثير من الجهد والوقت، فقد كان الوحيد في إدارتها وهو - كما قال الأستاذ خليل الحامدي - وحده كان يكتب افتتاحياتها وعدداً من مقالاتها، ومساجلاتها، ويرد على أسئلة المطابع لطبعها، ويراجع البروفات، ويربط الطرود، ويلصق الطوابع على الطرود، ويحمل الطرود إلى البريد، كان يسجل العناوين، ويراسل المشتركين.

وكان من حرصه على العلم يصلي العشاء، ويجلس للمطالعة والكتابة إلى أن يصلي الفجر في مسجد الحي، ثم ينام سويعات ليستسقظ بعدها نشيطاً إلى عمله في المكتب، وكان المودودي حينها شديد الفقر، حتى إنه كان ينام دون أن يجد ما يأكله، وغالباً ما كان يعيش على العدس والماء.

وكان كل همه في هذه المجلة أن يفرغ فيها ما كان اختزنه من علم وفكر وثقافة، تتناول سائر الشؤون الإسلامية مستقياً إياها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن الفقه الذي استوعبه.

وكانت مقالاته ذات أصالة وتجديد، عميقة المضمون، مصيبة للهدف، مما حدا بالمفكرين والمهتمين بالإسلام إلى ترجمتها إلى عدة لغات كالإنكليزية والفارسية والفرنسية، بالإضافة إلى العربية التي ترجمت أكثر مقالاته وكتبه إليها، وهكذا استمر الإمام المودودي في تحرير هذه المجلة الرائدةإلى أن توفاه الله تعالى عام ١٣٩٩هـ.

انتقد المودودي في مقالاته كل شكل من أشكال الجاهلية القديمة والحديثة، انتقد دعاة الجمود والتقليد من أتباع المذاهب الفقهية، كما انتقد أدعياء الاجتهاد المطلق، كما انتقد المنكرين لحجة السنة كما انتقد المتساهلين فيها، انتقد دعاة التحرير من الدين، كما انتقد الذين يجعلون الدين تبعاً لأهوائهم.

الجماعة الإسلامية:

في عام ١٣٦٠هـ/١٩٤١م أسس المودودي الجماعة الإسلامية مع قلة من الدعاة والمفكرين والوجهاء وأعلنوا أهداف الجماعة: إقامة دين الله، وإقامة النظام الإسلامي، وكسب مرضاة الله، والحصول على النجاة في الآخرة (الله غايتنا)، بدأت الجماعة بخمس وسبعين عضواً، وسبعين روبية فقط، وانتخب كأول رئيس لها.

ونشطت الجماعة وانتشرت في شبه القارة الهندية، وعندما انفصلت باكستان عن الهند توزعت الجماعة بين الباكستان والهند. وعندما قامت الحرب بين باكستان والهند في جمادى الأولى ١٣٨٥هـ/ سبتمبر ١٩٦٥م كان للمودودي والجماعة الإسلامية دور بارز في الشحذ المعنوي للجماهير ومساعدة مهاجري الحرب، كما أسهمت الجماعة بشكل إيجابي في الإمداد الطبي، فأقامت ما يقارب عشرين مركزًا للإمداد الطبي في آزار كشمير، وألقى المودودي عدة خطب عن الجهاد.

اعتقلاته والحكم بإعدامه:

كانت مطالبات المودودي تتلخص في أربعة أمور: إخلاص الحاكمية لله وحده، اتخاذ الشريعة قانوناً أساسياً للبلاد، وإبطال كل القوانين المخالفة، والالتزام بتحكيم الشريعة في تصرفات الحكومة.

كانت هذه المطالب سبباً لاصطادمه مع الحكومة التي اعتقلته عدة مرات، إلاّ أن ذلك لم يثنه عن مواصلة نشاطه الحركي أو الفكري، وبعد أربعة أيام من اعتقاله الثالث في ٢٤ شعبان ١٣٧٢هـ حُكم عليه بالإعدام، وهو ما أدى إلى حدوث ثورة من الغضب الشديد في معظم أنحاء العالم الإسلامي، وتوالت البرقيات من كل مكان تشجب هذا الحكم، حتى اضطرت الحكومة إلى تخفيف

حكم الإعدام والحكم عليه بالسجن مدى الحياة، ولكن ردود الفعل الرافضة لهذا الحكم أدت إلى إصدار حكم بالعفو عن المودودي في ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

وبعد أن أطلق سراحه ظل يمارس دوره الدعوي والفكري، فكان من أبرز دعاة الحرية والوحدة، وظل يحذر الشعب من مساندة الجماعات الانفصالية حتى لا ينقسم الوطن، ويقع في حرب أهلية لا يعلم مداها إلا الله.

تقدير وإطفاء شمعة:

أصيب المودودي بمرض دفعه إلى طلب إعفائه من إمارة الجماعة الإسلامية عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، واتجه إلى البحث والكتابة؛ فأكمل تفهيم القرآن، وشرع في كتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م فاز المودودي بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام؛ فكان أول من حصل على تلك الجائزة تقديراً لجهوده المخلصة في مجال خدمة الإسلام والمسلمين.

وفي غرة ذي القعدة ١٣٩٩هـ/ ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩م انطفأت تلك الشمعة التي أحرقت نفسها للدفاع عن الإسلام والهوية الإسلامية، انتقلت روح أبي الأعلى إلى الأعلى، توفي المودودي تاركاً فراغاً يصعب تغطيته، إلاّ أنه أبقى لنا مؤلفات قيمة وفكراً متوهجاً وسيرة عطرة تبقيه قدوة حسنة للعلماء والدعاة وعوام المسلمين عبر العصور.

يذكر أن مؤلفاته ورسائله تجاوزت المئة والخمسين، من أشهرها: الجهاد في الإسلام، وتفهيم القرآن، والقانون والدستور الإسلامي، والملكية والخلافة.